

(I) مدخل في علوم القرآن الكريم

- 1) فصل في علم النسخ والنسوخ في القرآن الكريم.
 - أ * الكنت على تعلم هذا العلم والحكمة منه.
 - ب * شروط النسخ وطرق معرفته.
 - ج * زمن النسخ وحاله.
 - د * حكم النسخ وأنواعه في القرآن الكريم.

- 2) فصل في علم الحكم والتمثيل في القرآن الكريم.
 - أ * تعريف الحكم والتمثيل في اللغة وفي الاصطلاح.
 - ب * أنواع التمثيل في القرآن الكريم.
 - ج * فوائد معرفة التمثيل في القرآن الكريم.

- 3) فصل في إعجاز القرآن الكريم.
 - أ * في معنى الإعجاز: حقيقته ومداره.
 - ب * في القدر المعجز من القرآن الكريم.
 - ج * في نواحي الإعجاز في القرآن الكريم.
 - + الإعجاز اللغوي + الإعجاز التشريعي + الإعجاز العلمي

(4) حفظ سورة الواقعة

(II) مصادر ومراجع عامة

- 1 - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للنسخ والأفندي طاب الله ربه.
- 2 - التبرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدين الزركشي.
- 3 - التبيين لبغض المباحث المتعلقة بالقرآن للشيخ محمد طاهر الجزائري.
- 4 - دراسات قرآنية: تاريخ القرآن وعلومه للدكتور عبدنان زرزور.
- 5 - مباحث في علوم القرآن للنسخ وبعض العلماء.
- 6 - مباحث في علوم القرآن للنسخ صنع خليل القطان.
- 7 - مناهل العرفان في علوم القرآن للشيخ محمد عبد
العزيز الزركشي

هذا هو الناس
والسنة في القرآن
التي

من الأسس التي بني عليها التشريع الإسلامي التدرج في سريخ الأحكام حتى تنهيا النفوس لتقبل الأحكام ولا تفاجأ بها فيشق عليها فيكون ذلك سبباً دافعاً لرفضها وهذا التدرج يقتضي تشريع بعض الأحكام لتكون علاجاً لحالات اقتضتها الظروف والملابسات ثم تنتهي هذه الأحكام بالنسخ لزوال مقتضاتها، حتى

إذا تم شرع الله (الإسلام) نزولاً بقيت محكمة إلى يوم الدين . وشريعتنا السماوية قد تمت بنزول قوله تعالى : ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾^(١) فبعد نزول هذه الآية الدالة على تمام الشريعة وكمالها لا يكون هناك تبديل ولا تغيير . وهذا التدرج في التشريع شمل كثيراً من الأحكام نذكر بعضاً منها :

أولاً - حكم الخمر :

لم يشرع الله تبارك وتعالى تحريم الحمر ابتداءً، لكن نزل تحريمها على مراحل .

أولها : نزل قوله تعالى : ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما﴾^(٢) .

فهذه الآية الكريمة لم تصرح بالكف عنها بل بينت أن فيها إثماً كبيراً ومنافع للناس والإثم الموجود فيها أكبر من نفعها .

فكان هذا تمهيداً أولياً لتحريمها إذ العاقل يجتنب الأمر الذي ضرره أكثر من نفعه .

ثانيها : نزل قوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾^(٣) .

فإن هذه الآية أفادت التحريم الجزئي إذ أمر المسلمون فيها بعدم قربان الصلاة وهم سكارى فكان هذا تمهيداً ثانياً لتحريمها واجتنابها حيث أن أوقات الصلاة متعددة ومتفرقة ولا يأمن المسلمون إذا شربوها أن يدخل عليهم وقت الصلاة وهم سكارى .

ثالثها : نزل قوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾^(٤) .

فهذه الآية قررت بعد أن تهيات النفوس تحريم الخمر تحريماً كلياً قاطعاً إذ

(١) البقرة (٢ - ٢١٩)

(٢) المائدة (٤ - ٤) .

(٣) النساء (٤٣)

(٤) المائدة (٩١)

جعلتها رجساً من عمل الشيطان إلى جانب الأمر باجتنابها ثم أكد الله ذلك ببيان ما في الخمر من المفاسد الدنيوية والدينية إذ قال جل شأنه ﴿إنما يُريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم متتهون﴾ (١).

ثانياً - نظام التوريث:

جاء الإسلام فوجد العرب في جاهليتهم يقصرون الميراث على الذكور الكبار ويقولون لا يرث إلا من يحمل السيف ويحمي العشيرة ويقاوم العدو كما كان من أسباب الإرث عندهم الحلف والتبني فلم يشأ أن يبطل ذلك دفعةً واحدة فأقرهم على ذلك فترة من صدر الإسلام ثم أخذ في تعديل ذلك تدريجياً فنسخ الإرث بالتبني أولاً بقوله تعالى: ﴿وما جعل أدياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. ادعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم﴾ (٢).

كما جعل التوارث بين المسلمين مبنياً على الهجرة والمؤاخاة واستمر العمل بذلك فترة من الزمن حتى تغيرت الظروف التي اقتضت ذلك فأبطل التوارث بالهجرة والتحالف والتأخي بقوله تعالى: ﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً﴾ (٣).

ثم شرع للإرث أحكاماً مفصلة هدمت الأسس الجائرة التي بنى الجاهلية نظامهم في الإرث عليها.

من المعروف أن الشرائع السماوية ما جاءت إلا لإصلاح البشر وتحقيق مصالحهم ومما لا شك فيه أن المصالح تتبدل بتبدل الأحوال والأزمان فما يصلح في حال أو زمن قد لا يصلح في حال أو زمن آخر لذلك كان لا بد من تغير بعض الأحكام الفرعية لصالحها في جيل وعدم صلاحها في جيل آخر.

من أجل هذا جاء النسخ في الشرائع السماوية في الأمور التي تختلف فيها

(١) المائدة (٩١)

(٢) الأحزاب (٤-٥)

(٣) الأحزاب (٦)

الأجيال البشرية كذلك يقع النسخ في الشريعة الواحدة إذ قد يشرع الحكم لتحقيق مصلحة وقتية تقتضيها أسباب خاصة فإذا زالت هذه الأسباب زالت المصلحة التي من أجلها شرع الحكم فيصبح الحكم لا فائدة من بقاءه، مثال ذلك نهى النبي ﷺ عن إدخار لحوم الأضاحي حين وفدت طائفة من فقراء المسلمين على المدينة أيام عيد الأضحى وعلّة هذا النهي هو التوسعة على هذه الطائفة فلما زالت العلة التي من أجلها شرع الحكم نسخ بقول الرسول ﷺ بعد ذلك (إنما نهيتكم عن إدخار لحوم الأضاحي لأجل الدافّة ألا فادخروا) وبناء على ذلك إذا جاء نص شرعي بحكم ثم جاء بعده بزمان نص آخر يبطل العمل بحكم النص الأول في كل ما يتناوله أو في بعضه سمي النص الأول منسوخاً والنص الثاني ناسخاً وإبطال حكم النص الأول في كل ما يتناوله أو بعضه يسمى نسخاً.

حد النسخ

يُطلقُ النسخ في اللغة على عدة معانٍ:

أ - بمعنى الرفع والإزالة: والإزالة نوعان إزالة إلى بدل: وهي عبارة عن إبطال شيء وإقامة آخر مقامه كنسخت الشمس الظل: أذهبته وحلت محله والشيب الشباب وإزالة إلى غير بدل من غير تعويض عن المنسوخ وهي عبارة عن رفع الحكم وإبطاله كنسخت الريح أثر القوم: أي أبطلتها وعفت عليها^(١) ومن هذا النوع قوله تعالى: ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾^(٢).

والنسخ بمعنى الإزالة حقيقة عند جمهور أهل اللغة والأصول وهو اختيار أبي الحسين البصري والإمام الفخر الرازي ورجحه سيف الدين الأمدي ومال إليه أكثر المتأخرين من أصحاب الأصول من الشافعية والمالكية والحنابلة.

ب - بمعنى النقل والتحويل: وهو نقل مع بقاء الأول: كنسخت الكتاب إذا نقلت ما فيه وليس المراد انعدام ما فيه ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَفِي نَسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ

(١) راجع معنى النسخ في لسان العرب ٦٣٤/٣ والمصباح المنير (٦٠٢) ومختار الصحاح (٦٠٦)

(٢) الحج (٥٢)

(٣) الجاثية (٢٩)

يرهبون^(١)، وتحويل مع بقاء الشيء في نفسه كقول أبي حاتم السجستاني من أئمة اللغة: النسخ أن يُحوّل ما في الخلية من العسل والنحل إلى أخرى ومنه تحويل المناسخات في الموارث فإنها تنقل من قوم إلى قوم مع بقائها في نفسها وتناسخ الأزمنة والقرون وتناسخ الأرواح عند القائلين به والنسخ بمعنى النقل والتحويل مجاز عند الجمهور حقيقة عند الأحناف والقفال من الشافعية وقال القاضي والغزالي مشترك بينهما: ولم يرجح ابن الحاجب أحداً منهما ومثله ابن السبكي والأسنوي.

والأول قول الأكثر من أئمة الأصول

تعريف النسخ إصطلاحاً^(٢):

لقد عرف العلماء النسخ بتعريفات متعددة نكتفي منها هنا بتعريفين:

أولهما: هو بيان انتهاء حكم شرعي بطريق شرعي متراخ عنه.

معنى التعريف: إن الحكم الأول وهو الحكم المنسوخ كان له غاية في علم الله تعالى ومدته معلومة ينتهي عندها لذاته سواء حصل عندها حكم آخر أو لم يحصل فإذا جاء النسخ بين لنا هذه الغاية وتلك المدة.

التعريف الثاني للنسخ: عرف بعض الأصوليين كالقاضي الباقلاني النسخ بأنه:

رفع حكم شرعي بدليل شرعي متراخ عنه.

معنى التعريف: إن خطاب الله تعالى تعلق بالفعل على وجه لولا طريان

الناسخ عليه لكان مضمون البقاء والثبوت في المستقبل من الزمان.

مقارنة بين التعريفين:

إذا نظرنا إلى التعريفين وجدنا الفارق بينهما يتحقق في كلمة رفع في أحدهما

(١) الأعراف (٥٤)

(٢) انظر المعتمد ٣٩٦/١، اللمع (٣٠)، العدة ٧٧٨/٣ - البرهان ٢٩٣/٢، أصول السرخي ٥٤/٢، المستصفى ٦٩/١، المنقول (٢٨٩)، المحصول ٤٢٣/٣/١، الحدود للباي (٤٩) الأحكام لابن حزم ٥٦٤/٤، الأحكام للأملدي ١٤٦/٣، المنتهى (١١٣)، شرح التنقيح (٣٠١) المسودة (١٩٥)، روضة الناظر (٦٩)، المضد على المختصر ١٨٥/٢، شرح الكوكب ٥٢٥/٣، البحر المحيط ٦٨/٤، الإبهاج ٢٤٧/٢، التعريفات للجرجاني (٢٤٠)، كشف الأسرار ١٥٥/٣، حاشية الباني ٧٥/٢، الآيات البيئات ١٢٩/٣، تيسير التحرير ١٨١/٣، فواتح الرحموت ٥٣/٢، إرشاد الفحول (١٨٣)، نشر البنود ٢٨٦/١.

وكلمة بيان في الآخر مع اتفاقهما في باقي القيود ولعل الملاحظ في هذا الفارق أن النسخ فيه جهتان:

إحدهما: بالنسبة إلى الله فمن راعى هذه الجهة عبر بالبيان لأن النسخ في حقه تعالى بيان محض الإنتهاء مدة الحكم الأول وليس فيه معنى الرفع لأنه كان معلوماً عند الله تعالى أنه ينتهي في وقت كذا بالناسخ.

فكان الناسخ بالنسبة لعلم الله مبيناً للمدة لا رافعاً، لأن الرفع يقتضي الثبوت والبقاء لولاه والبقاء هنا بالنسبة إلى علم الله محال لأنه خلاف معلومه.

ثانيهما: بالنسبة إلى البشر فمن راعى هذه الجهة عبر بالرفع لأنه زال ما كان ظاهر الثبوت وخلفه شيء آخر.
نوضح ما تقدم بالمثال فنقول:

لم تكون الخمر في أول الإسلام محرمة وكان الله سبحانه وتعالى يعلم أنه سيحرمها علينا بعد مدة ولم يخبرنا سبحانه وتعالى بذلك بل أطلق حكم الإباحة فظننا نحن معاشر المسلمين بقاء هذا الإطلاق إلى يوم الدين فلما جاء التحريم بعد ذلك كان رافعاً في حقنا للإباحة التي ظننا بقاءها. وكان ذلك التحريم بالنسبة إلى الله تعالى بياناً لميعاد انتهاء الإباحة الذي كان في علمه.

الحث على علم الناسخ

وهو فرض كفاية لتوقف بعض الأحكام عليه تكلم فيه رسول الله ﷺ وعن السلمى، عن علي رضي الله عنه أنه مر بأبي عبد الرحمن صاحب أبي موسى رضي الله عنه وهو يقص على الناس فقال: أتعرف الناسخ والمنسوخ؟ قال: هلكت وأهلكت أبو من أنت؟ قال: أبو يحيى قال بل أبو أعرفوني وأخذ بأذنه فقتلها وقال: لا تقص بعدها في مسجدنا.

وعنه أخرج من مسجدنا ولا تذكر فيه.

وعن عمر رضي الله عنه وابن عباس رضي الله عنهما مثله وقال الزهري رحمه الله: من لم يعلم الناسخ والمنسوخ خلط في الدين.

محل النسخ

محل النسخ هو: الحكم الشرعي الذي لم يلحقه تأييد ولا نأقبت وذلك كسائر الأحكام التكليفية من الوجوب وأخواته.

ويؤخذ مما تقدم ما يأتي:

الأول: الأحكام العقلية والاعتقادية كوحداية الله ووجوب الإيمان به ليست محلاً للنسخ.

ثانياً: الأحكام الحسية كإحراق النار ليست محلاً للنسخ.

ثالثاً: الأحكام المؤبدة بالنص أو بدلالته ليست محلاً للنسخ لأن رفعها بعد تأييدها من الشارع الحكيم يؤدي إلى البداء - أي الظهور بعد الخفاء - وهو محال على الله تعالى. فمثال المؤبد بالنص قوله تعالى: ﴿وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾ وقوله في بيان حكم قاذف المحصنات ﴿ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً﴾ فإن لفظ أبداً على أن هذا حكم دائم لا يزول وقوله ﴿والجهد ماض إلى يوم القيامة﴾.

ومثال المؤبد بالدلالة الشريعة التي توفي رسول الله ﷺ عنها فإنها مؤبدة إلى يوم القيامة بدلالة إنه خاتم الأنبياء والمرسلين.

رابعاً: الأحكام المؤقتة بوقت لا تكون محلاً للنسخ قبل تمام وقتها لأن النسخ قبل تمام الوقت بداء وجهل وهما محالان على الله تعالى وذلك كقوله تعالى: ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر﴾.

خامساً: الإخبار عن الأمور الماضية أو المستقبلية أو الحاضرة لا يكون محلاً للنسخ لأن نسخه يؤدي إلى الجهل والكذب مثال ذلك قول الله تعالى: ﴿فسجد

6

الملائكة كلهم أجمعون ﴿ وقوله ﴿ فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية وأما عاد فأهلكوا بريح
صرصر عاتية ﴿ .

أما الأخبار التي تتضمن حكماً شرعياً فهي محل للنسخ باعتبار ما تضمنته من
حكم شرعي . وذلك كقوله تعالى : ﴿ والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ﴿ فهذا
خير تضمن حكماً شرعياً هو وجوب العدة على المطلقة ذات الحيض وتكون بالإقراء
ثلاثاً .

زمن النسخ

النسخ للأحكام المنصوصة لا يكون إلا في حياة الرسول ﷺ لأن هذه الأحكام
بعد وفاته تصير مؤبدة بانقطاع الوحي فلا تكون محلاً للنسخ .

من هذا يتبين أنه لا نسخ بعد وفاة الرسول . لأن النسخ لا يكون إلا بالوحي
كتاب أو سنة على التحقيق وابتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى ينتهي الوحي وغيره
وتتم الشريعة . وتستقر الأحكام وحين ذاك لا يكون نسخ ولا تغيير ولا تبديل ولا رفع .

ما تقدم هذا بالنسبة إلى الزمن الذي فيه الناسخ . أما بالنسبة لحكم الفعل الذي
يرد عليه النسخ ففيه تفصيل نسوقه إليه .

أولاً : اتفق العلماء - سوى الكرخي - على أن نسخ حكم الفعل بعد التمكن من
الفعل جائز والمراد من التمكن من الفعل أن يمضي بعد وصول الخطاب إلى المكلف
زمن يسع فعل المكلف به .

ثانياً : اختلف العلماء في جواز النسخ قبل التمكن من الفعل وذلك يكون على

وجهين :

أ - أن يرد الناسخ قبل دخول وقت الواجب كما لو قيل صوموا غداً ثم قيل قبل
الفجر : لا تصوموا .

ب - أن يرد الناسخ بعد دخول الوقت الواجب لكن كان ذلك قبل انقضاء زمان
يسع الفعل الواجب كما إذا قيل صم غداً ثم شرع في الصوم وقبل انقضاء ذلك اليوم
قيل : لا تصم .

(7)

شروط النسخ

هناك شروط النسخ أتفق على بعضها واختلف على البعض الآخر منها:

الشروط المتفق عليها

أولاً: أن يكون الناسخ مترخياً عن المنسوخ فخرج بذلك المتصل به كالإستثناء والشروط والغاية فليس بنسخ.

ثانياً: أن يكون المنسوخ حكماً شرعياً ممكناً لا واجباً لذاته كالإيمان بالله أو ممتنعاً لذاته كالكفر بالله لأن وجوب الإيمان وحرمة الكفر لا ينسخ بحال في دين من الأديان.

ثالثاً: أن يكون دليل النسخ شرعياً فخرج بذلك الموت والجنون إذ كل منهما

يرفع الحكم الشرعي عن الشخص ولا يسمى نسخاً لأن رفع الحكم حصل بالعقل القاضي بأنه لا تكليف مع الموت والجنون.

الشروط المختلف فيها

أولاً: كون الناسخ أخف من المنسوخ.

ثانياً: أن يكون هناك بدل للمنسوخ.

ثالثاً: أن يكون الدليل الناسخ والمنسوخ من جنس واحد.

رابعاً: التمكين من الاعتقاد مع عدم التمكين من الفعل الذي تعلق به الحكم.

حكم النسخ

حكم النسخ وجوب العمل بالناسخ وترك الحكم المنسوخ فقط أن كان النسخ للحكم دون التلاوة كآية اعتداد المتوفى عنها زوجها بالحوال بآية الاعتداد بأربعة أشهر وعشر أيام فإن الآية الأولى قد زال حكمها وهو وجوب الاعتداد بالحوال بآية الاعتداد بالأشهر وبقيت أحكامها المتعلقة بها كاعتقاد قرانيتها وجواز قراءتها في الصلاة وحرماً حملها ومسها على المحدث وقراءتها على الحنب.

أو ترك الأحكام المتعلقة بالتلاوة دون الحكم إن كان النسخ للتلاوة فقط كما روي عن الشافعي وغيره عن عمر - رضي الله عنه - لولا أن يقول الناس زاد عمر في كتاب الله لكتبها (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله).

فوجوب الرجم مأخوذ من الآية باق مع زوال الأحكام المتعلقة بالتلاوة أو تركها جميعاً كما روي عن عائشة - رضي الله عنها - كان فيما أنزل (عشر) رضععت معلومات يحرم من فنسخن بخلس معلومات).

فالحكم وهو تحديد الرضاع المحرم بالعشر قد زال وكذلك الأحكام الخاصة بالتلاوة قد انتهت هذا كله بالنسبة للقرآن الكريم.

أما بالنسبة لسنة فلا ينسخ فيها لا الحكم المستفادة منها لأنها ليست متعبداً بتلاوتها فليس لها أحكام تتعلق بلفظها وحيث يكون حكم النسخ فيها كنسخ الحكم

— طريق معرفة النسخ : لا يمكننا معرفة الناسخ من المنسوخ في الآيات القرآنية إلا من النبي ﷺ ولن يصل ذلك إلا عن طريق الصحابة الذين شاهدوا الوحي والتزيل وسمعوا النبي ﷺ فاقضى الأمر صحة النقل عن النبي ﷺ أو عن الصحابة .

يقول ابن الحصار : إنما يرجع في النسخ إلى نقل صريح عن رسول الله ﷺ أو عن صحابي يقول : آية كذا نسخت كذا .

قال : ويحكم به عند وجود التعارض المقطوع به مع علم التاريخ ليتعرف المتقدم والمتأخر . ولا يعتمد في النسخ قول عوام المفسرين بل ولا اجتهاد المجتهدين من غير نقل صحيح ولا معارضة . لأن النسخ يتضمن رفع حكم وإثبات حكم تقرر في عهده ﷺ (9) هذا من حيث النظر أما من حيث التطبيق فقد أحصى ذلك الباحثون والدارسون وألفوا فيه مؤلفات عديدة .

— فقد أفرد هذا الفن بالتصنيف خلائق لا يحصون — كما يقول السيوطي منهم أبو عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة 224هـ . وأبو داوود السجستاني المتوفى سنة 275هـ . وابن الأنباري المتوفى سنة 323هـ ومكي بن أبي طالب القيسي المتوفى سنة 437هـ . وابن حزم الأندلسي . وأبو جعفر النحاس وأبو بكر بن العربي وابن الجوزي المتوفى سنة 597هـ . وابن المنادي المتوفى سنة 334هـ وآخرون .

— وبعد عملية الاستقراء لما قيل فيه ناسخ ومنسوخ قسم العلماء سور القرآن الكريم إلى أربعة أقسام . قسم ليس فيه ناسخ ولا منسوخ وهو ثلاث وأربعون سورة وقسم فيه الناسخ والمنسوخ وهو خمس وعشرون . وقسم فيه الناسخ فقط وهو ستة . وقسم فيه المنسوخ فقط وهو الأربعون الباقية .

وفي هذا التقسيم نظر وخلاف (10) .

أنواع النسخ :

من المتعارف عليه لدى الكاتين في النسخ أن يذكروا له الأنواع الثلاثة التالية :

النوع الأول : نسخ الحكم والتلاوة معا - أى نسخ لفظ الآية والحكم الذى تدل عليه ، واستدلوا لهذا النوع . بما ورد عن عائشة - رضى الله عنها - أنها قالت : « كان فيما أنزل من القرآن : عشر رضعات معلومات يجرمن ، ثم نسخن بخمس معلومات ، وتوفى رسول الله ﷺ وهن فيما يقرأ من القرآن » قالوا : الحديث صحيح وله حكم المرفوع إلى النبي ﷺ وإن كان موقوفا على عائشة لأنها صحابية إلى جانب مكانها من النبي ﷺ ، ولأن مثل هذا الموضوع لا يقال فيه بالرأى وإنما يلزم فيه التوقيف .

النوع الثانى : هو نسخ التلاوة فقط دون الحكم ، أى أن لفظ الآية ينسخ ويبقى حكمها ساريا واستدلوا له - علاوة على ما سبق فى النوع الأول - بما روى عن عمر بن الخطاب وأبى بن كعب أنهما قالا : « كان فيما أنزل من القرآن : الشيخ والشيخة - إذا زنيا فارجموهما البتة » فحكم الرجم للمحصن الزانى باق ومعمول به ، مع أنه لا نص عليه باللفظ المذكور ولا بغيره .

النوع الثالث : هو نسخ الحكم دون التلاوة ، أى أن لفظ الآية باق فى المصحف ويتلى ضمن ما يتلى من كتاب الله مع أن الحكم الذى تتضمنه هذه الآية قد رفع عن العمل بدليل آخر لاحق له واستدلوا له بقوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ﴾ (١) . فإن الحكم الذى تتضمنه هذه الآية وهو وجوب تقديم صدقة بين يدي رسول الله ﷺ لدى مناجاته أى عند إرادة الحديث معه على انفراد ... هذا الحكم قد نسخ بدليل آخر هو الحكم الذى تتضمنه الآية التالية لها وهى قوله تعالى ﴿ أأشفقتم أن تقدموا

(١) آية ١٢ من سورة المائدة .

بين يدي نحوكم صدقات فإذا لم تفعلوا وتاب الله عليكم ، فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله والله خير بما تعملون ﴿١﴾ .

وبأمثلة أخرى معروفة من الآيات المتلوة في المصحف مع رفع حكمها بآيات لاحقات لها تتضمن أحكاما أخرى في نفس الموضوع .

وهذا النوع الثالث هو الذى ينطبق عليه التعريف الأصولى السابق ، كما تصدق عليه المعانى اللغوية الواردة إلى جانب أنه هو المراد بالمقصود الشرعى من النسخ .

أما النوع الأول والثانى فلا ينطبق عليهما هذا التعريف ، كما لا يصدق على النصوص المستشهد بها فيها أنها قرآن ، حيث لا قرآن ألا ما بين دفتي المصحف^(٢) - وعلى فرض تداول هذه النصوص على بعض الألسنة ، فقد تكون من قبيل العبارات التفسيرية التى كان يكتبها أصحاب المصاحف الخاصة لأنفسهم كما ورد « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى - صلاة العصر » لاسيما وأن حكم الرضاع^(٣) وحكم الزنا^(٤) قد ورد النص عليهما في آيات أخرى من القرآن وهى وإن كانت مجملة فقد تولت السنة تفصيلها وبيانها .

هذا بالإضافة إلى أن هذين النوعين لا يتوقف عليهما شئ من المقصود الشرعى للنسخ ، وماورد في النوع الثانى من بقاء أحكام نسخ لفظها فسيبيل بقائها إنما هى السنة ، وليس هو تلك النصوص التى يقال أنها كانت ثم نسخت ، ومما هو جدير بالملاحظة أن هذه النصوص المشار إليها لم تكتسب قوة النص ولا حجيتها حيث لم تحظ بما تحقق للآيات المدونات في المصحف ، كما أن النسخ بالمعنى الأصولى السابق وبالمعنى اللغوى أيضا لا يتضح ولا يتحقق إلا في نص موجود بالفعل له كل صفات الثبات والدلالة على الحكم ليتحقق فيه بعد ذلك

(١) آية ١٣ من سورة المجادلة .

(٢) راجع ما سبق في الكتاب في جمع القرآن وتدوينه .

(٣) هو آية : ﴿ وأخواتكم من الرضاعة ﴾ ٢٣ النساء .

(٤) هو آية : ﴿ الزانية والزانى فاجلدوا ... ﴾ الآية ٢ من سورة النور .

الرفع الناتج عن النص اللاحق المتمتع بكل هذه الصفات أيضا .
وحيث أن يتحقق المقصود الشرعي من النسخ وهو رفع حكم شرعي قائم
واستبدال حكم شرعي آخر به . لحكمة يريد الله سبحانه صاحب الشرع
ومنزله .

(19)

الحكمة من النسخ :

يقول الحق تبارك وتعالى في محكم كتابه - في معرض الحديث عن نفسه وفي مجال الحض على الإيمان به سبحانه - ﴿ هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرؤوف رحيم ﴾ (١) . فمن حكمته - سبحانه - في إنزال هذا القرآن إخراج الناس من الظلمات : ظلمات الشرك والجهل والضلال إلى النور : نور الإيمان والعلم والهداية إلى الصراط المستقيم ، وفي ذلك - ولاشك - الشفاء لكل الشفاء لمن أخذ به والتزم نهجه من المؤمنين ، كما أن الضياع والهلاك هو مآل من أعرض عنه وتكذب طريقه من الكافرين .

وهذه الهداية إنما هي أثر من آثار رأفته - سبحانه - بعباده ، وبعض من فيض رحمته السابقة - جل شأنه عليهم - ﴿ وإن الله بكم لرؤوف رحيم ﴾ .

فإذا كان هذا هو المقصود العام من إنزال الآيات ، وقد أخير سبحانه أنه لا ينسخ آية إلا جاء بخير منها أو مثلها ، كان هذا النسخ إرادة من الله في تحقيق حكمته في هداية خلقه على الصورة التي اختارها لهم وارتضاها لصلاحهم .

وفي هذا الإطار وعلى هذا السبيل : سبيل الهداية والإخراج من الظلمات إلى النور يكون النسخ الواقع في القرآن - في موضوعاته المختلفة ، وبمراحله المتعاقبة - إنما هو خطوات تربوية ، وتلرج تدريبي للوصول إلى هذه الغاية دونما اعتساف أو طفرة ودونما ردة أو انتكاس كما قال تعالى في آية أخرى ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾ (٢) .

هذه الحكمة التربوية هي الأساس - فيما يبدو لنا - في أمر النسخ ، يتضح ذلك في الآيات التي جاءت بشأن الخمر حتى انتهت بتحريمه . وبقاء

(١) آية ٩ من سورة الحديد .

(٢) آية ٨٢ سورة الإسراء .

الآيات المنسوخات كنصوص محكمات في صلب الكتاب يعطينا صورة عن هذه العملية التربوية ومراحلها وكيف كان الحال قبلها وكيف صار بعدها حتى اقتلعت هذه العادة الاجتماعية وشفيت هذه الظاهرة المرضية في مسيرة سهلة واستجابة تامة للعلاج ، وقناعة ورضا بالنتيجة .

ولا يخفى أن في الأمر حكما أخرى كالدلالة على قدرة الله تعالى ، والبرهان على إعجاز القرآن وأنه منزل من عند الله وخارج عن طوق الإنسان ، إلى جانب بيان فضل الله على هذه الأمة فيما صارت إليه من هداية ونور بعد ما كانت فيه من ضلالة وظلام ، ورسم الطريق للمرين والمصلحين ، وغير ذلك كثير ، وفوق ذلك كله حكمة الله العليم الخبير .

14

1

فصل في إلهام الحكم والمتشابه

1 — يرتكز هذا البحث على ثلاث آيات قرآنية كريمة وهي قوله تعالى « هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات ، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون في العلم يقولون آمنا به ، كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولو الألباب » آل عمران 7 . وقوله تعالى : « آزر ، كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » هود 1 . وقوله تعالى : « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله .. » سورة الزمر 23 .

فالآية الأولى بينت أن القرآن الكريم فيه آيات محكمة وآيات متشابهة والآية الثانية بينت أن القرآن الكريم كله محكم ، والآية الثالثة بينت أنه كله متشابه .

ومن منطلق هذه الآيات الثلاث خاض العلماء في المحكم والمتشابه .

2 — وقد بين العلماء أن مدلول الآية الأولى غير مدلول الآيتين الأخيرتين ، فهو في الآية الثانية إذ يقول تبارك وتعالى : « كتاب أحكمت آياته... » فلاحكام هنا الاتقان وجمال النظم ورفع الاسلوب ، ودقة المعاني في كل الآيات بحيث لا يمكن أن يتطرق إليها باطل أو خلل . وفي هذه الآية يقول شيخ المفسرين الطبري : (أحكم الله آياته من الدخل والنحل والباطل ثم فصلها بالأمر والنهي وذلك أن إحكام الشيء اصلاحه واتقانه واحكام آيات القرآن ، احكامها من

خلل يكون فيها. أو باطل يقدر ذو زيف أن يطعن فيها من قبله).
 3 — وأما التشابه في أحسن الحديث فيعني أن آيات القرآن
 الكريم يشبه بعضها بعضا من ناحية الاحكام والدقة والتأثير في
 السامع. وفي الصدق والبلاغة والاعجاز. والدلالة على الهدى
 والجنة.

على أننا نجد في آيات كثيرة من القرآن الكريم تشابها في اللفاظ.
 وقد أفرده العلماء بالبحث والنظر حيث أسماه... المتشابه اللفظي (1).
 وهو الذي تتكرر فيه الآيات القرآنية. وألفاظها متفقة لكن وقع في
 بعضها زيادة أو نقصان. أو تقديم أو تأخير. أو إبدال حرف مكان
 آخر. وأكثر ما يرد هذا النوع في قصص القرآن.

وقد أفاض في هذا النوع من التشابه غير واحد منهم الخطيب
 الاسكافي في كتابه: درة التنزيل وغرة التأويل. وهو مطبوع وأبو
 القاسم محمود بن حمزة الكرماني وكتابه يسمى البرهان في متشابه القرآن
 واستفاد من الخطيب وقد طبع أخيرا بمصر. وأبو جعفر بن الزبير
 الغرناطي وكتابه يدعى ملاك التأويل القاطع لذوي الاحاد والتعطيل في
 توجيه المتشابه اللفظي من أي التنزيل.

ومنهم العلامة ابن الجوزي في كتابه: فنون الافنان في عيون علوم
 القرآن. وتبعهم في ذلك غير واحد. ومن الذين تبعوهم الزركشي في
 كتابه: البرهان في علوم القرآن.

... ..

3

تعريف الحكم والمتشابه :

للعلماء تعريفات عديدة لهما ، وأحسن هذه التعريفات التعريف الآتي :

الحكم : ما عرف المراد منه إما بالظهور وإما بالتأويل .

والمتشابه : ما تعذر ذلك ، واستأثر الله بعلمه ، كقيام الساعة ،
والحروف المقطعة في أوائل السور .

قال القرطبي : هذا أحسن ما قيل في المتشابه (٢) .

وقيل : الحكم مالا يحتمل من التأويل إلا وجهاً واحداً . والمتشابه

ما احتمل أوجهاً . وقيل غير ذلك (٣) .

أذن فالحكم والمتشابه نوعان موجودان في القرآن ، ويتعلقان كما
رأيت بوضوح المعنى وعدمه ، وهذا أمر طبيعي ، فالتفاوت في الوضوح
يوجد في كل كلام ، فهناك الواضح الذي لا غموض فيه ولا يحتاج إلى جهد

(٢) « تفسير القرطبي » ١٠/٤

(٣) أورد السيوطي في « الاتقان » ٢/٢ تعريفات عديدة لهما .

٤

في فهمه وتفسيره ، بل معناه مفهوم يبادر الى الذهن مباشرة ، وهناك نصوص محتملة ليست في تلك الدرجة من الوضوح ، ولا يقوى الناس على فهمها وادراك مفزاها .

والآية المتقدمة تشير إلى أن الذين يريدون الحق لا يذهبون إلى تلك النصوص المشابهة ويحملونها ما لا تحمل ، ولا يستقلون غموضها لتأويلها . بما يتناسب واغراضهم ، فذلك فعل الذين في قلوبهم زيغ ، وأما المؤمنون العلماء فانهم يلتزمون الواضح فيعملون به ويؤمنون بالمتشابه انه من عند الله ، ويدعون محاولة التعسف في فهمه وتأويله .

هل المتشابه مما يمكن معرفته ؟

اختلف العلماء في ذلك على قولين :

الاول : انه يمكن الاطلاع على علم المتشابه للراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله ، واختار هذا القول الامام النووي فقال في « شرح مسلم » : انه الاصح ، لانه يبعد أن يخاطب الله عباده بما لا سبيل لاحد من الخلق إلى معرفته .

ويبدو انه لا بد من بقاء بعض المتشابه الذي لا يمكن للناس الاطلاع على علمه ، والذي يبقى تأويله مختصاً بالله تعالى .
الثاني : انه لا يمكن لاحد الاطلاع على علمه ولا يعلمه الا الله ، وأما الراسخون في العلم فانهم يقولون : آمنة به كل من عند ربنا .
وأيد السيوطي هذا القول بأنه قول اكثر الصحابة والتابعين .

انواع المتشابه :

أفاض العلماء في ذكر انواعه ، دون المحكم ، لان الموضوع شائك بالنسبة إلى المتشابه ، فذكروا أن المتشابه ثلاثة أنواع (١) :

(١) نقل السيوطي هذا التقسيم عن الراغب الاصفهاني في « المفردات » انظر

5

متشابه من جهة اللفظ فقط ، ومتشابه من جهة المعنى فقط ،
ومتشابه من جهتهما .

وسنذكر كلا منها بشيء من الشرح :

١ - المتشابه من جهة اللفظ : وهو الذي اصابه الغموض بسبب
اللفظ وهو نوعان :

١ - احدهما يرجع الى الالفاظ المفردة اما من جهة الفراية او الاشتراك ،
والمثال على الفراية كلمة (الاب) وكلمة (يزفون) .

والمثال على الاشتراك (اليد واليمين) .

ب - ثانيهما يرجع إلى جملة الكلام المركب وذلك ثلاثة اضرب :

١ - ضرب لاختصار الكلام . نحو (وإن خفتم الاتقسطوا لي الينامى
فاتكحوا ما طاب لكم) (١) .

٢ - وضرب لبسطه . نحو (ليس كمثلته شيء) (٢) .

٣ - وضرب لتنظيم الكلام . نحو (٥٥ انزل على عبده الكتاب ولم يجعل
له عوجاً قيماً) (٣) تقديره : انزل على عبده الكتاب قيماً ولم يجعل له عوجاً .

٢ - والمتشابه من جهة المعنى فقط : وذكر الزاغب أن منه اوصاف
الله تعالى واوصاف القيامة اذ هو سبحانه ليس كمثلته شيء ، واحوال
القيامة مما لا نستطيع تصورها لان فيها ما لا عين رأت ولا اذن سمعت
ولا خطر على قلب بشر .

وقد ذهب ابن تيمية الى ان اعتبار آيات الصفات من المتشابه غلط ،
وقد رد على القائلين بذلك رداً مفصلاً (٤) ، ولكنه قرر ايضاً ان حقيقة

سورة النساء : ٣

(٢) سورة الشورى : ١١

(٣) سورة الكهف : ١

(٤) انظر « الفناوى » ٢٩٤/١٢

6

ما تدل عليه الآيات من حقائق الاسماء والصفات من المتشابه الذي لا يعلمه الا الله . قال : (وأما حقيقة ما دل عليه ذلك من حقائق الاسماء والصفات . . فهذا من تأويل المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله) (١) .

٣ - والمتشابه من جهتهما على انواع خمسة ، لن نذكرها ، ونكتفي بعرض نوع منها وذلك عندما يكون من جهة المكان والامور التي نزلت فيها نحو (إنما النسيء زيادة في الكفر) (٢) فان من لا يعرف عاداتهم في الجاهلية يتعذر عليه تفسير هذه الآية .

وذكروا للمتشابه تقسيما آخر من حيث إمكانية معرفته ، فقالوا انه ينقسم الى ثلاثة أقسام :

- الاول : لا سبيل الى الوقوف عليه كوقت الساعة وخروج الدابة .
- الثاني : للانسان سبيل إلى معرفته كالالفاظ الغريبة .
- الثالث : متردد بين الأمرين يختص بمعرفته بعض الراسخين في العلم ، ويخفى على من دونهم ، وهو المشار إليه بقوله صلى الله عليه وسلم لابن عباس : « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » .

فوائد المتشابه :

قد يرد سؤال هو : ما الحكمة في انزال المتشابه ووجوده ؟ والجواب على ذلك أن فوائد المتشابه تختلف بالنسبة الى ما يمكن علمه والى ما لا يمكن علمه .

- ١ - فوائد المتشابه الذي يمكن علمه عديدة نذكر منها أربعة هي :
- ١ - حث العلماء على النظر الموجب للعلم بفوامضه والبحث عن دقائقه .

(١) انظر « الفتاوى » ٦٥/٣

(٢) سورة التوبة : ٣٧

٧

٢ - ظهور التفاضل وتفاوت الدرجات اذ لو كان القرآن كله محكما لا يحتاج الى تأويل لاستوت منازل الخلق ولم يظهر فضل العالم على غيره .

٣ - الحصول على الثواب الاكبر ، ذلك لان المتشابه يوجب مزيد المشقة في الوصول الى المراد ، وزيادة المشقة توجب مزيد الثواب .

٤ - تحصيل العلوم الكثيرة ، ذلك لان المتشابه يوجب فهمه التعمق في معرفة النحو والمعاني وغيرهما والوقوف على اساليب العرب والعلوم الاخرى .

٢ - فوائد المتشابه الذي لا يمكن علمه :

١ - ابتلاء العباد بالوقوف عنده ، والتوقف فيه ، والتفويض والتسليم ، والتعبد بالاشتغال به من جهة التلاوة كالمنسوخ وان لم يجز العمل بما فيه .

٢ - إقامة الحجة على العرب البلغاء الابناء لان القرآن نزل بلسانهم ولغتهم ، ومع ذلك فقد عجزوا عن الوقوف على معناه ، فدل ذلك على انه منزل من عند الله .

تنبيه :

هذا هو المحكم والمتشابه . ونود ان نشير الى ان هاتين الكلمتين وردتا في القرآن بمعان اخرى .

وذلك مثل قوله تعالى (كتاب احكمت آياته) (١) اي في النظم والرصف .

ومثل قوله تعالى (كتاباً متشابهاً) (٢) اي يشبه بعضه بعضاً ، ويصدق بعضه بعضاً (٣) .

(١) سورة هود : ١

(٢) سورة الزمر : ٢٣

(٣) « تفسير القرطبي » ١٠/٤

فصل في اعجاز القرآن وآياته

القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى لرسول الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم . وهذا يقتضينا أن نقدم بين يدي بحثنا في الاعجاز حديثاً عن المعجزة .

المعجزة :

المعجزة ظاهرة تكررت في حياة الانبياء صلوات الله عليهم ، لتكون دليلاً على صدق دعواهم النبوة . وقد قص القرآن الكريم علينا كثيراً من انباء المعجزات التي جاءت مصدقة لرسول الله المتقدمين من امثال ناقة صالح وعصا موسى وركوبه البحر وإحياء عيسى الموتى ، وإيرائه الائمة والأبرص .

ولا بد في المعجزة من أن تتوافر فيها أمور ثلاثة :

١ - أنها أمر خارق للعادة غير جار على ما اعتاد الناس من سنن الكون والظواهر الطبيعية . ولذا فهي غير قابلة لتفسيرها على نحو ما يجري عادة في الحياة .

٢ - أنها أمر مقرون بالتحدي ، تحدي المكذبين أو الشاكين ، ولا بد أن يكون الذين يتحدون من القادرين على إتيان مثل المعجزة إن لم تكن من عند الله ، وإلا فإن التحدي لا يتصور ، إذ أننا لا نستطيع أن نتصور بطلاً في الملاكمة يتحدى طفلاً ، لأن هذا الطفل عاجز عن مقابلته (١) .

(١) وفي ذلك رد لزعم النظام من أن العرب سلبوا القدرة على الإتيان بالقرآن مع امكانهم ذلك .

٣ - انها امر سالم عن المعارضة ، فمضى أمكن لاحد ان يعارض هذا الامر ويأتي بمثله بطل ان يكون معجزة .
والمعجزة على نوعين : حسية وعقلية .

والملاحظ ان اكثر معجزات الانبياء السابقين كانت حسية بينما نجد ان المعجزة الكبرى التي جاء بها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم عقلية ، ونعني بهذه المعجزة القرآن وهناك معجزات اخرى للنبي صلى الله عليه وسلم جاء في الصحيح اخبارها وهي كثيرة (١) ولعل مرد ذلك الى ان هذه الشريعة آخر الشرائع وستبقى الى ابد الدهر الى يوم القيامة ، ومن اجل ذلك فقد خصت بالمعجزة العقلية الباقية ، ليراها ذوو البصائر في كل العصور ومهما تقدم الزمان .
... وهكذا فان معجزات الانبياء السابقين - عليهم السلام - قد انقرضت بانقراض اعصارهم ، فلم يشاهدها إلا من حضرها ، بينما معجزة القرآن مستمرة الى يوم القيامة .

القرآن المعجزة الباقية:

إعجاز القرآن: إثباته عجز البشر عن الإتيان بمثله أو بمثل بعضه، في

ألفاظه ومعانيه.

وهذه الخصوصية جعلت القرآن أعظم الأدلة على صدق النبي ﷺ في

رسالته، والحجة الباقية على الناس إلى أن تقوم الساعة.

قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ؟ قُلْ إِنَّمَا
الآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ، وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ
يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ؟ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت:
٥٠-٥١].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

«مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي
أُوتِيَتْ وَحِيًّا أَوْ حَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

وَقَدْ كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يُجْرِي عَلَىٰ أَيْدِي رُسُلِهِ وَأَنْبِيَائِهِ وَيَسُوقُ لَهُمْ مِنَ
الْبَرَاهِينِ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ صِدْقِهِمْ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، مِمَّا لَا يَقَعُ مِثْلُهُ فِي
الْعَادَةِ لِغَيْرِهِمْ مِنَ الْبَشَرِ، وَهُوَ مَعْجَزَاتِهِمْ، كَعَصَا مُوسَىٰ، وَإِحْيَاءِ عَيْسَى
لِلْمَوْتَى، وَالْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ لِنَبِيِّنَا ﷺ، لَكِنَّ تِلْكَ الْمَعْجَزَاتِ كَانَتْ أَدَلَّةً لِمَنْ
شَهِدَهَا، وَنَصِيبٌ مَنْ لَمْ يَشْهَدْهَا إِنَّمَا هُوَ الْخَبْرُ الْوَاجِبُ التَّصَدِيقِ، بِخِلَافِ
الْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ الْمَعْجِزَةُ الْبَاقِيَةُ، الَّتِي لَمْ تَزَلْ حَيَّةً بَيْنَ النَّاسِ، لَمْ يَتَبَدَّلْ وَلَمْ يَتَغَيَّرْ،
وَلَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِي يَوْمٍ مِنَ الدَّهْرِ.

تَحَدَّى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَرْبَابَ الْفَصَاحَةِ وَالْبَيَانِ، بَلْ جَمِيعَ بَنِي الْإِنْسَانِ، بَلْ
حَتَّىٰ لَوْ ظَاهَرَهُمْ عَلَيْهِ الْجَانُّ، وَلَمْ يَزَلْ يَتَحَدَّى: أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ،

(١) حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (رَقْمٌ: ٤٦٩٦، ٦٨٤٦) وَمُسْلِمٌ (رَقْمٌ: ١٥٢).

أو بمثلِ بَعْضِهِ، فما فَعَلُوا، ولن يَفْعَلُوا.

كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَاهُ، قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَأَدْعُوا مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ [هود: ١٣-١٤]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ، أَعَدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣-٢٤].

تحدّاهم بأن يأتوا بأقصرِ سُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ، على مِثَالِهِ فِي النِّظْمِ وَالتَّأْلِيفِ وَالْإِحْكَامِ، وَفِي الْمَعَانِي وَالدَّلَالَاتِ وَالْأَحْكَامِ، فَعَجَزُوا عَنْ مَعَارَضَتِهِ فِي كُلِّ ذَلِكَ، عَنْ مُمَاثَلَتِهِ بِعِبَارَاتِهِمْ، أَوْ مُجَارَاتِهِ بِبَيَانِهِمْ، أَوْ مُسَابِقَتِهِ بِقَوَانِينِهِمْ وَشَرَائِعِهِمْ.

ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ كَلَامُ رَبِّ الْعَالَمِينَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَكَلَامُهُ سُبْحَانَهُ مِنْ صِفَاتِهِ، وَهُوَ الَّذِي لَا مِثْلَ لَهُ فِي ذَاتِهِ وَلَا فِي صِفَاتِهِ، كَمَا قَالَ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿[الشورى: ١١]﴾، فَكَمَا لَا مِثْلَ لَهُ فِي سَمْعِهِ، وَلَا مِثْلَ لَهُ فِي بَصَرِهِ، وَلَا مِثْلَ لَهُ فِي سَائِرِ صِفَاتِهِ، فَكَذَلِكَ لَا مِثْلَ لَهُ فِي كَلَامِهِ.

فهذه - والله - هي العلة التي فارق بها كلامه سائر الكلام، وعجز
لأجله الخلق عن معارضته، فليس كشرهم ولا كثرهم، ولا كقوانينهم
وشرائعهم، مع أن حروفه من حروف كلامهم، ومفرداته من مفردات
قاموسهم، فلم يجدوا له في ألسنتهم مع الفصاحة، ولا في عقولهم مع
الرجاحة، ما يمكنهم به أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه، فقد أبت قوانين
الشعر وأساليب النثر ولوائح الأنظمة أن يقايس بها ويجري عليها.

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ
يَدَيْهِ، وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ؟
قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ *
بَلْ كَذَّبُوا بِهَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ...﴾ [يونس: ٣٧-٣٩].

* القدر المميز هو القرآن الكريم

نستطيع ان نلخص - فيما يأتي - الامور التي لا بد من معرفتها في موضوع الإعجاز :

- ١ - قليل القرآن وكثيره في شأن الإعجاز سواء .
- ٢ - الإعجاز في اسلوب القرآن ونظمه وبيانه . وخصائصه الفنية مبينة للممهد من خصائص البيان البشري .
- ٣ - ما في القرآن من إخبار بالغيب وحديث عن الماضي بدقائقه وتفصيلاته ، وإخبار بدخائل النفس وأسرارها ، وكشف عن حقائق علمية وكونية ، وإحكام في التشريع يضمن مصالح الناس . . كل ذلك بمعزل عن

6

هذا التحدي المفضي إلى الإعجاز وإن كان دليلاً على أنه من عند الله ، ولكنه لا يدل على أن نظمه وبيانه مباين لنظم كلام البشر وأنه بهذه المبانيّة كلام رب العالمين . (١)

٤ - العرب الذين تحداهم القرآن هم أئمة البيان والفصاحة ، ولديهم القدرة على تمييز ما كان من كلام البشر ، وما ليس من كلامهم ، وقد أدركوا أنهم بالتحدي طولبوا بأن يأتوا بمثل هذا الكلام .

٥ - إن هذا التحدي لم يقصد به الإتيان بمثل معاني القرآن ، بل قصد أن يأتوا بما يستطيعون اقتراءه واختلاقه من كل معنى أو غرض مما يعتلج في نفوس البشر .

٦ - هذا التحدي مستمر إلى يوم القيامة وموجه إلى الثقلين أيضاً .
٧ - وأخيراً فإن العرب الذين نزل عليهم هذا القرآن كانوا يحسون بجماله ويدركون إعجازه ، واستمر الأمر كذلك جيلين من الناس إلى أن دخلت العجمة سواد الناس فأفسدت سلايقهم وبدأت العلوم والمعارف الدخيلة تنسرب إلى حياتهم ، وقام دجالون مغرضون يريدون تشويه حقيقة الإسلام وكان من هؤلاء الجعد بن درهم (٢) ، ثم جاء النظام إبراهيم بن سيار فقال بالصرفة . ورد عليه الجاحظ في كتابه « نظم القرآن » .

وقد أكثر المعتزلة من إثارة قضية إعجاز القرآن ، وكذلك فإن عدداً من علماء أهل السنة المتذوقين للبيان العربي كتبوا في ذلك من أمثال الإمام عبد القاهر الجرجاني (٣) والرازي (٤) والزملكاني (٥) .

* * *

- (١) انظر مقدمة الاستاذ محمود شاكر لكتاب « الظاهرة القرآنية » .
- (٢) هو مبدع له آراء ضالة وذكره بعضهم في الزنادقة . قتله خالد بن عبد الله القسري سنة ١١٨ هـ .
- (٣) هو الامام الكبير واضح أسس البلاغة ، والدواقة عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١ هـ .
- (٤) هو محمد بن عمير التيمي البكري المتوفى سنة ٦٠٦ هـ صاحب التفسير .
- (٥) هو عبد الواحد بن عبد الكريم بن خلف الانصاري الزملكاني المتوفى سنة ٦٥١ هـ .

وقد بقي من الكتب المؤلفة في القرنين الرابع والخامس عن إعجاز القرآن : كتاب الرماني وهو « النكت في إعجاز القرآن » (١) ومؤلفه هو علي بن عيسى الرماني المتوفى ٢٨٤ هـ ، وكتاب الخطابي وهو « بيان إعجاز القرآن » (١) ومؤلفه هو حمد بن محمد المتوفى سنة ٣٨٨ هـ وكتاب الباقلائي وهو « إعجاز القرآن » (٢) ومؤلفه هو أبو بكر محمد بن الطيب المتوفى سنة ٤٠٣ هـ .

هذا وإن مما يتصل بموضوع إعجاز القرآن وسمو بيانه موضوع ترجمة القرآن والحق في هذه المسألة التي كثر الأخذ والرد فيها ان نقرر ان ترجمة القرآن امر مستحيل - لان أي نص بليغ تتعذر ترجمته في أي لغة من لغات الأرض فما القول بالكلام الالهي المعجز ؟
اما تفسير معاني آياته بغير اللغة العربية فأمر لا مانع منه ، بل إنه واجب .
ولكنه لا يسمى قرآنا بحال من الأحوال .

-
- (١) طبع هذا الكتاب في دار المعارف بمصر تحت عنوان « ثلاث رسائل في إعجاز القرآن » بتحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام .
(٢) طبع أكثر من مرة ، وحققه أخيرا السيد صقر .

أنواع الإعجاز في القرآن:

يَعْسُرُ أَنْ تُحَدِّدَ وَجوهَ الإعجازِ في القرآنِ العظيمِ، فكلُّ شيءٍ منه لا نظيرَ له، فهو باهرٌ في ألفاظِهِ وأسلوبِهِ، في تأليفِهِ ونظْمِهِ، في بيانِهِ وبلاغتِهِ، في تشريعِهِ وحِكْمِهِ التي حَيَّرَتِ الألبابَ، في أنبيائه وأخبارِهِ، في تاريخِهِ وحفظِهِ، في علومِهِ التي لا تنقطعُ ولا تقفُ عندَ غايةٍ.

وقد أَجْمَلَ وَصَفَهُ وَأَحْسَنَهُ مَنْ قَالَ:

«فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة⁽¹⁾، ولا يشبع منه العلماء،

القرآن العظيم، سورة الأعراف، الآية 201.

(1) سورة الأعراف، الآية 201.

القرآن العظيم، سورة الأعراف، الآية 201.

(1) هذا وصفٌ عجيبٌ، وسمَةٌ خاصَّةٌ لهذا القرآنِ العظيمِ، فإنَّه تتلوهُ الألسنةُ لم تُفْتَقْ بالعربيَّةِ، بل ربَّما عَسَرَ عليها قراءَةُ سواه من الكلامِ العربيِّ، أمَّا هوَ فتنطقُ به الألسنةُ مع عجمتِها، «ولقد يسرنا القرآنَ للذكرِ»، وهذا رأيناؤه وشهدناؤه.

وَلَا يَخْلُقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ^(١)، وَلَا تَنْقُضِي عَجَائِبُهُ، هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الْجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّى قَالُوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قِرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ [الْجِنُّ: ١-٢]، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَّمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ^(٢).

والتَّيْبَةُ هُنَا عَلَى أَرْبَعَةِ أَنْوَاعٍ لِلإِعْجَازِ الْقِرْآنِيِّ:

النَّوْعُ الْأَوَّلُ: الإِعْجَازُ اللَّغَوِيُّ:

هَذَا النَّوْعُ هُوَ أْبْرَزُ مَا تَحَدَّى بِهِ الْقِرْآنُ الْعَرَبَ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ التَّحَدِّي فِي أْبْرَزِ خِصَائِصِهِمْ، فَمَعَ أَنَّهُ بِلِسَانِهِمْ، وَأَتَى بِمَا لَا يَخْرُجُ عَنْ وُجُوهِ فَصَاحَتِهِمْ وَأَسَالِيْبِ بَيَانِهِمْ، وَهَمَّ يَوْمئِذٍ فِي الدَّرْوَةِ فِي ذَلِكَ نَشْرًا وَنَظْمًا،

(١) أَي لَا يَأْتِي عَلَيْهِ التَّكْرَارُ بِذَهَابِ لَدَّتِهِ، بَلْ هُوَ فِي كُلِّ مَرَّةٍ جَدِيدٌ، مَهْمَا تَكَرَّرَتْ تِلَاوَتُهُ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ سَائِرُ الْكَلَامِ.

(٢) رُوِيَ هَذَا حَدِيثًا مَرْفُوعًا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَلَا يَصِحُّ.

فَأَخْرَجَهُ أَبُو شَيْبَةَ (٤٨٢/١٠) وَأَحْمَدُ (رَقْم: ٧٠٤) وَالذَّارِمِيُّ (رَقْم: ٣٢١١) وَالتِّرْمِذِيُّ (رَقْم: ٢٩٠٦) وَالتَّسَائِيُّ فِي «مَسْنَدِ عَلِيٍّ» - كَمَا فِي «تَهْذِيبِ الْكَمَالِ» (٢٦٧/٣٤) - وَغَيْرِهِمْ، مِنْ طَرِيقِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَعْمُورِ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، بِهِ.

قَالَ التِّرْمِذِيُّ: «إِسْنَادُهُ مَجْهُولٌ، وَفِي الْحَارِثِ مَقَالٌ».

قُلْتُ: التَّحْقِيقُ أَنَّ عَلْتَهُ ضَعْفُ الْحَارِثِ، وَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ التِّرْمِذِيُّ مِنَ الْجَهَالَةِ زَائِلٌ أَثْرُهَا بِالْمَتَابَعَةِ، وَالْأَشْبَهُ أَنْ يَكُونَ هَذَا مِنْ كَلَامِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، أَخْطَأَ الْحَارِثُ فِي رَفْعِهِ.

لكنهم عجزوا عن معارضته ولو بسورة من مثله، فصاروا يتخبطون، فتارة يقولون: (هو شعر)، وتارة: (قول كاهن)، وتارة: (أساطير الأولين)، لا يثبتون على شيء؛ لأنهم يعلمون أنه ليس كما يقولون، وما كان لهم ليغفلوا عن صفة الشعر ولا صيغة النثر، وهم أهل ذلك وعباقرة، وإنما شأنهم شأن من قال الله فيهم: ﴿فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا: هذا سحر مبين * وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٣-١٤].

وهكذا قال أولئك المشركون عن القرآن: ﴿هذا سحر مبين﴾ [الأحقاف: ٧]، وقالوا: ﴿إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون، فقد جاءوا ظلماً وزوراً * وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً﴾ [الفرقان: ٤-٥]، وقالوا: ﴿أضغاث أحلام، بل افتراه، بل هو شاعر﴾ [الأنبياء: ٥].

فهو سبيل من سبق، وحجة من لا برهان له، ﴿كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون﴾ [الذاريات: ٥٢]، ﴿إن الذين كفروا بالذکر لَمَّا جاءهم، وإنه لكتاب عزيز * لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد * ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك﴾ [فصلت: ٤١-٤٣].

أعيتهم الحيل، وضافت بهم السبل، فلجأوا إلى وصف القرآن بما لا يشكون لو أنصفوا أنهم فيه مبطلون، لكن أعمتهم الأهواء فأنى يبصرون.

﴿فَذَكِّرْهَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ * أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ
تَتَّبِعُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ * قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُرَبِّصِينَ * أَمْ تَأْمُرُهُمْ
أَخْلَامُهُمْ بِهَذَا؟ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ * أَمْ يَقُولُونَ: تَقَوْلُهُ؟ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ *
فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ٢٩-٣٤].

ويبقى القرآن يتحدث ولا يرجع الكفار جواباً، ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ
فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ، وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [هود:
١٤]، وأنى لهم الجواب، واللَّهُ يَقُولُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾
[البقرة: ٢٤].

قال الأديب الرَّافعي: «فَقَطَعَ أَنَّهُمْ لَنْ يَفْعَلُوا، وَهِيَ كَلِمَةٌ يَسْتَحِيلُ أَنْ
تَكُونَ إِلَّا مِنَ اللَّهِ، وَلَا يَقُولُهَا عَرَبِيٌّ فِي الْعَرَبِ أَبَدًا، وَقَدْ سَمِعُوهَا وَأَسْتَقَرَّتْ
فِيهِمْ وَدَارَتْ عَلَى الْأَلْسِنَةِ، وَعَرَفُوا أَنَّهَا تَنْفِي عَنْهُمْ الدَّهْرَ نَفِيًّا، وَتُعْجِزُهُمْ
أَخِرَ الْأَبَدِ، فَمَا فَعَلُوا وَلَا طَمَعُوا أَنْ يَفْعَلُوا، وَطَارَتِ الْآيَةُ بِعَجْزِهِمْ
وَأَسْجَلَتْهُ عَلَيْهِمْ وَوَسَمَتْهُمْ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ، فَلَمَّا رَأَوْا هِمَمَهُمْ لَا تَسْمُو إِلَى
ذَلِكَ، وَلَا تُقَارِبُ الْمَطْمَعَةَ فِيهِ، وَقَدْ أَنْقَطَعَتْ بِهِمْ كُلُّ سَبِيلٍ إِلَى الْمَعَارِضَةِ،
بَذَلُوا لَهُ السَّيْفَ، وَأَنْصَرَفُوا عَنْ تَوْهِنِ حُجَّتِهِ إِلَى تَهْوِينِهَا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِكَلَامٍ
مِنَ الْكَلَامِ، فَقَالُوا: سَاحِرٌ، وَشَاعِرٌ، وَمَجْنُونٌ، وَرَجُلٌ يَكْتَتِبُ أُسَاطِيرَ
الْأَوَّلِينَ، وَإِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ، مِمَّا أَخَذَتْ بِهِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ، وَكَانَ
إِقْرَارًا مِنْهُمْ بِالْعَجْزِ، إِذْ جَنَحُوا فِيهِ إِلَى سِيَاسَةِ الطَّبَاعِ وَالْعَادَاتِ»^(١).

(١) إعجاز القرآن، لأديب الإسلام مصطفى صادق الرافعي (ص: ١٧٠).

وإنما حالهم كما قال الله عز وجل: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ،
فَضَّلُوا، فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٩].

ثم إن هذا القرآن قد اشتمل من القاموس العربي على أحسن الكلمات
وأفصحها، ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣]، أما في تركيب جملة،
وتناسق عباراته، ومقاطع آياته، فهو الفرد الذي لا نظير له.

﴿كِتَابٌ فَضَّلْتَ آيَاتُهُ قِرَآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣]، ﴿وَلَقَدْ
ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * قِرَآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ
ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٨].

فكم ترى يكون في الكلام من المعاني أو البيان أو البديع، فإن القرآن في
ذروة ذلك، بل به عرف كل ذلك، فما وضعت علوم البلاغة إلا بسببه،
طريقاً إلى فهمه، وإبرازاً لعظيم قدره، وتأصيلاً ليبنى سائر الكلام على
قاعدته ونهجه.

وأهل التفسير في القديم والحديث يراعون هذه الخصوصية للقرآن، فلم
يتكلم أحد في تفسير هذا الكتاب وبيان دلائله ومعانيه من لدن أصحاب
النبي ﷺ وإلى اليوم إلا وهو يراعي الجوانب البلاغية فيه، وأسرار ذلك لا
تنتهي، ولن تنتهي.

﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

النوع الثاني: الإعجاز الإخباري:

وهذا هو الإعجاز فيما تضمنه القرآن من الأنباء، وهو أربعة أشياء:
أولها: الإخبار عن الغيب المطلق، كالخبر عن الله عز وجل وأسمائه
وصفاته، والملائكة، وصفة الجنة وصفة النار.

وقد أتى القرآن في هذا الأمر بما لا يدركه بشر من تلقاء نفسه، إذ طريقه
لا يكون من جهة العقول، إنما طريقه السمع الذي ﴿لا يأتيه الباطل من بين
يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد﴾ [فصلت: ٤٢].

وثانيها: الإخبار عن الأمور السابقة، كالخبر عن بدء الخلق، وعن الأمم
السالفة.

وقد قص علينا القرآن من ذلك عجباً، وأتى من الأنباء بما لم يملك
المُصنفون من أهل الكتاب والعلم إلا تصديقه، كما قال الله عز وجل:
﴿والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق﴾ [الأنعام:
١١٤]، وقال تعالى: ﴿قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به، وشهد
شاهد من بني إسرائيل على مثله، فآمن واستكبرتم﴾ [الأحقاف: ١٠]،
وقال سبحانه: ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على
قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربي مبين * وإنه لفي زبر الأولين *
أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٧].

فجاء ما آتاه الله من ذلك تصديقاً لما بين يديه، وما تعلم من أحد من

إِنْسٍ وَلَا جِنَّ، ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ، إِذَا
لَا زَتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا، مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا
الْإِيمَانُ﴾ [الشورى: ٥٢].

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ
الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ، وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾
[يوسف: ٢-٣].

فقص الله سبحانه قصة نوح، ثم قال لنبِيِّهِ ﷺ: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ
نُوحِيهَا إِلَيْكَ، مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ [هود: ٤٩].

وفصل قصة يوسف، ثم قال: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ، وَمَا
كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢].

وقص طرفاً من نبأ موسى، ثم قال: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا
إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ * وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ
عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ، وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًّا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا، وَلَكِنَّا كُنَّا
مُرْسِلِينَ * وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا، وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾
[القصص: ٤٤-٤٦].

وقال بعد ذكر قصة مريم: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ، وَمَا
كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ

يُخْتَصِمُونَ ﴿آلِ عِمْرَانَ: ٤٤﴾.

ما أعظمتها من منة يمتن الله عز وجل بها على نبيه ﷺ! وما أعظمتها من
معجزة خرقت جميع قوانين الخلق في التعلم والتلقي! يبلغ ﷺ الأربعين من
عمره وهو بين قومه، يعرفونه بالأمية، لا يقرأ ولا يكتب، ولم يعرفوه
بمجالسة معلم، ثم يظهر للناس بما لا طاقة لهم بمثله.

وحين أفتروا فقالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾، قال الله عز وجل: ﴿لِسَانُ
الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ، وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

16
وَيَسْتَمِرُّ التَّحَدِّي، فيجعل الله عز وجل من الواقع المشاهد دليلاً على
صدق ما جاء به نبيه ﷺ: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادُ
وَأَمْوَدُ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ، وَكَذَّبَ مُوسَى،
فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ، فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ * فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا
وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبُرُّ مُعْتَلَّةٌ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ * أَفَلَمْ
يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا، أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا؟
فَإِنَّمَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج:
٤٢-٤٦].

وثالثها: الإخبار عما يكون في مستقبل الزمان، كالأخبار عن الشيء قبل
وقوعه في عهد النبي ﷺ، أو عما سيكون بعد ذلك.

كما في قوله عز وجل: ﴿الْم * غَلَبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ، وَهُمْ

مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بَضْعِ سِنِينَ، لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ،
وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ، يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ *
[الرُّوم: ١-٥].

وقد صححت الرواية بتحقيق ما أخبرت به هذه الآيات عن غير واحد
من أصحاب النبي ﷺ، فمن ذلك حديث نيار بن مكرم الأسلمي، قال:

لَمَّا نَزَلَتْ ﴿الْم * غَلَبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ، وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ
سَيَغْلِبُونَ * فِي بَضْعِ سِنِينَ﴾ فَكَانَتْ فَارِسُ يَوْمَ نَزَلَتْ هَذِهِ آيَةُ قَاهِرِينَ
لِلرُّومِ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يُحِبُّونَ ظُهُورَ الرُّومِ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ وَإِيَّاهُمْ أَهْلُ
كِتَابٍ، وَفِي ذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَقْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ،
يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾، فَكَانَتْ قُرَيْشٌ مُحِبِّ ظُهُورَ فَارِسٍ؛
لِأَنَّهُمْ وَإِيَّاهُمْ لَيْسُوا بِأَهْلِ كِتَابٍ وَلَا إِيْمَانٍ بِيَعْتِ، فَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ
الآيَةَ، خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ يَصِيحُ فِي نَوَاحِي مَكَّةَ: ﴿الْم * غَلَبَتِ الرُّومُ
* فِي أَدْنَى الْأَرْضِ، وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بَضْعِ سِنِينَ﴾، قَالَ
نَاسٌ مِنْ قُرَيْشٍ لِأَبِي بَكْرٍ: فَذَلِكَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، زَعَمَ صَاحِبِكُمْ أَنَّ الرُّومَ
سَتَغْلِبُ فَارِسًا فِي بَضْعِ سِنِينَ، أَفَلَا تُرَاهِنُكَ عَلَى ذَلِكَ؟ قَالَ: بَلَى، وَذَلِكَ قَبْلَ
تَحْرِيمِ الرَّهَانِ، فَأَرْتَهَنَ أَبُو بَكْرٍ وَالْمَشْرِكُونَ وَتَوَاضَعُوا الرَّهَانَ، وَقَالُوا لِأَبِي
بَكْرٍ: كَمْ تَجْعَلُ الْبَضْعَ ثَلَاثَ سِنِينَ إِلَى تِسْعِ سِنِينَ، فَسَمَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ وَسَطًا
تَنْتَهِي إِلَيْهِ، قَالَ: فَسَمَّوْا بَيْنَهُمْ سِتَّ سِنِينَ، قَالَ: فَمَضَتِ السُّتُّ سِنِينَ قَبْلَ
أَنْ يَظْهَرُوا، فَأَخَذَ الْمَشْرِكُونَ رَهْنَ أَبِي بَكْرٍ، فَلَمَّا دَخَلَتِ السَّنَةُ السَّابِعَةُ

17

ظَهَرَتِ الرُّومُ عَلَى فَارِسَ، فَعَابَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ تَسْمِيَةَ سِتِّ مَنِينٍ؛
لَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿فِي بَضْعِ سِنِينَ﴾، قَالَ: وَأَسْلَمَ عِنْدَ ذَلِكَ نَاسٌ كَثِيرٌ^(١).

كَذَلِكَ مَا تَضَمَّنَهُ الْقُرْآنُ مِنَ الْإِخْبَارِ عَنِ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ، وَالْبُعْثِ بَعْدَ
الْمَوْتِ، وَالْحَشْرِ وَالْحِسَابِ، وَالْمَصِيرِ إِلَى الْجَنَّةِ أَوْ إِلَى النَّارِ، بِمَا لَا سَبِيلَ لِلْبَشَرِ
إِلَى مَعْرِفَتِهِ إِلَّا بِوَحْيِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، جَمِيعُهُ بُرْهَانٌ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ.

وَرَابِعُهَا: الْإِخْبَارُ عَمَّا تُكْنُهُ النَّفُوسُ وَتُخْفِيهِ الضَّمَائِرُ، مِمَّا لَا يُمَكِّنُ أَنْ
يَعْلَمَهُ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا يَصِلُ إِلَى عِلْمِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَّا بِوَحْيِ اللَّهِ.

كَالَّذِي تَرَاهُ فِي سُورَةِ التَّوْبَةِ مِنْ ذِكْرِ أَسْرَارِ الْمُنَافِقِينَ، حَتَّى خَافَ النَّاسُ
أَنْ يَنْزِلَ الْقُرْآنُ بِأَسْمَائِهِمْ يُظْهِرُ حَقَائِقَ مَا فِي نَفُوسِهِمْ.

كَمَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: سُورَةُ التَّوْبَةِ، قَالَ: آتَتْ تَوْبَةً؟،
قَالَ: بَلْ هِيَ الْفَاضِحَةُ، مَا زَالَتْ تَنْزِلُ: ﴿وَمِنْهُمْ﴾، ﴿وَمِنْهُمْ﴾، حَتَّى ظَنُّوا
أَنْ لَا يَبْقَى مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا ذُكِرَ فِيهَا^(٢).

(١) حَدِيثٌ حَسَنٌ.

أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (رَقْم: ٣١٩٤) وَالطَّحَاوِيُّ فِي «شَرْحِ مَشْكِلِ الْآثَارِ»
(٧/٤٤٢-٤٤٣) مِنْ طَرِيقِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي الزَّنَادِ، عَنِ أَبِي الزَّنَادِ، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ
الزُّبَيْرِ، عَنْ نِيَارٍ، بِهِ.

قُلْتُ: وَإِسْنَادُهُ حَسَنٌ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: «حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ».

(٢) حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (رَقْم: ٤٦٠٠) وَمُسْلِمٌ (رَقْم: ٣٠٣١).



النوع الثالث: الإعجاز التشريعي:

ويكمنُ فيما أودعَ اللهُ في كتابه من القوانين التي تشهدُ في استقامتها وعَدْلِها وصَلاحِها لكلِّ زمانٍ أتت من عندِ اللهِ، وأن لا طاقةَ للخَلْقِ أن يوجِدوا لها نظيراً، مَهْمَا بَلَغَتِ العُقُولُ.

ذَلِكَ أَنَّ التَّشْرِيْعَ مَبْنِيٌّ عَلَى تَحْقِيقِ مَصَالِحِ العِبَادِ فِي الدَّارَيْنِ، وَلَا يُحِيطُ بِتِلْكَ المَصَالِحِ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ؛ لِقُصُورِ العِلْمِ، وَالتَّقْصِصِ بِالطَّبْعِ، لَكِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ هُوَ الخَالِقُ، فَهُوَ أَعْلَمُ بِخَلْقِهِ وَحَاجَتِهِمْ وَمَا يَكُونُ بِهِ صَلاَحُهُمْ وَفَسَادُهُمْ، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مِنْ خَلْقٍ، وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ﴾ [المَلِكُ: ١٤].

فَلِذَا جَاءَ تَشْرِيْعُهُ مَوْصُوفاً بِالحُسْنِ المُنْطَلَقِ وَبالحَقِّ المُنْطَلَقِ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، وَقَالَ: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾ [الفرقان: ٣٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ الكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالمِيزَانَ﴾ [الشورى: ١٧]، وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ [البقرة: ١١٩]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الحَقُّ﴾ [الأنعام: ٦٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَبالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبالْحَقِّ نَزَّلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥]، وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ، فَأَحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨].

وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَمَا صَحَّ فِي العُقُولِ أَنْ يَكُونَ هُوَ الحَقُّ المُنْطَلَقُ،

19

١٩

أو يكونَ أَحْسَنَ قَانُونٍ وَتَشْرِيعٍ، مَهْمَا رَجَحَتْ عُقُولُ مُقْتَنِّيهِ، فَإِنَّهُ مَا مِنْ قَوْمٍ
إِلَّا وَلَهُمْ مِنَ الشَّرَائِعِ وَالْقَوَانِينِ مَا يُسَيِّرُونَ بِهِ شُؤُونَ حَيَاتِهِمْ، لَكِنَّهُمْ لَا
يَفْتَاوْنَ يَغَيِّرُونَ وَيُصَلِّحُونَ، وَلَوْ وَصَفُوا قَانُونَهُمْ بِالْحَقِّ الْمَطْلُوقِ لِتَعَدَّرَ عَلَيْهِمْ
تَبْدِيلُهُ وَالِاسْتِدْرَاكُ عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا هَذِهِ أَوْصَافٌ لَا تَكُونُ إِلَّا لِمَا هُوَ خَارِجٌ عَنِ
قُدْرَاتِ الْمَخْلُوقِينَ.

﴿كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، تَنْزِيلٌ
مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فُصِّلَتْ: ٤١-٤٢].

فَأَنْزَلَ الْقُرْآنَ حِينَ أَنْزَلَ، وَهُوَ إِلَى الْيَوْمِ، وَسَيَبْقَى إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ، لَا يَجِدُ
النَّاسُ سَبِيلًا إِلَى نَقْضِ شَيْءٍ مِنْ أَحْكَامِهِ وَشَرَائِعِهِ، مَهْمَا سَعَى الْكُفَّارُ
وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ لِإِبْطَالِ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالْهُدَى، كَمَا لَا
يَجِدُونَ سَبِيلًا لِلِإِتْيَانِ بِهَا هُوَ أَحْسَنُ مِنْهُ، إِذْ لَا أَحْسَنَ مِنْهُ.

النَّوعُ الرَّابِعُ: الإعجاز العلمي:

وَذَلِكَ فِيمَا بَيْنَ اللَّهِ فِي هَذَا الْكِتَابِ وَدَلَّ عَلَيْهِ مِنَ الْآيَاتِ فِي السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَالْأَنْفُسِ، بِمَا لَمْ يَكُنْ لِيُحِيطَ بِهِ عِلْمُ بَشَرٍ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ
تَلْقَاءِ نَفْسِهِ، ثُمَّ يَبْقَى النَّاسُ يَكْتَشِفُونَ أَسْرَارَهُ فِي الْكُونِ، وَالْقُرْآنُ قَدْ سَبَقَ بِهِ
مَنْذُورٌ بَعِيدٌ تَصْرِيحًا وَتَلْوِيحًا، كَانَ يَتْلُوهُ عَلَى النَّاسِ نَبِيُّ أُمَّيٍّ، لَمْ يَدْرُسْ
عِلْمَ الْفَضَاءِ وَلَا الْبَيْئَةِ وَلَا الْبِحَارِ وَلَا طَبَقَاتِ الْأَرْضِ وَلَا الْأَجْنَةِ، لَيْسِيءٌ

العالم أنه رسول رب العالمين، وأن هذا القرآن من علم الله الذي أحاط
بكل شيء.

فتأمل مثاله في الأنفيس في قول الله عز وجل: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ
وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٣-١٤]، ثم تأمل تفسير تلك
الأطوار في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ
جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً، فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً،
فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا، فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا، ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ، فَتَبَارَكَ
اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤].

وتأمل مثاله في الكون في قول الله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا، وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ،
أَفَلَا يُؤْمِنُونَ...﴾ الآيات [الأنبياء: ٣٠-٣٣]، أو في قوله سبحانه: ﴿وَأَيُّ
هَمِّ اللَّيْلِ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ، فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا،
ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ
الْقَدِيمِ * لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ، وَكُلٌّ
فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٧-٤٠].

ألا تكفي هذه الآيات باحثاً عن الحقيقة ليشهد أنه الحق من ربه؟ أترى
يكون هذا من بشر من أهل مكة يأتي به من تلقاء نفسه قبل خمسة عشر قرناً
من الزمان؟ كلا، ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ
شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٣-٥]، ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ،

21

1

وَأَنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿البقرة: ٢٥٢﴾.

وَالْعِلْمُ الْحَدِيثُ يَظْهَرُ عَلَى النَّاسِ بِعَجَائِبِ فِي خَلْقِ اللَّهِ، فَيُبْهَرُ النَّاسُ بِهَا، وَحَقُّ لَهُمْ، لَكِنَّ الْأَعْجَبَ أَنْ يَكُونَ الْقُرْآنُ قَدْ نَبَّهَ عَلَى أَعْتَابِهَا وَدَلَّ عَلَيْهَا مِنْذُ ذَهْرِ بَعِيدٍ، وَلَمْ يَكُنْ لِلنَّاسِ يَوْمئِذٍ مِنْ وَسَائِلِ النَّظَرِ وَالْاِكْتِشَافِ مَا لِأَهْلِ زَمَانِنَا، إِنَّهُ أَسْتَمْرَارُ شَهَادَةِ الْحَقِّ، أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ:

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ، أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ؟﴾ [فُصِّلَتْ: ٥٣].

﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ، فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَرَادَ لِهَذَا الْقُرْآنِ أَنْ يَكُونَ حُجَّتَهُ عَلَى الْأُمَّمِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، وَمَا كَانَ لِيَصِحَّ ذَلِكَ إِلَّا وَالِدَّلِيلُ عَلَى أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ بَاقٍ مُسْتَمِرٌّ، فَتَارَةً لُغْتُهُ وَفَصَاحَتُهُ وَتَأْلِيفُهُ وَنَظْمُهُ، وَتَارَةً عِصْمَتُهُ مِنَ التَّحْرِيفِ وَبِقَاوُهُ غَضًّا طَرِيًّا كَمَا لَوْ أَنْزَلَ السَّاعَةَ، وَتَارَةً مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْقَوَانِينِ وَالشَّرَائِعِ الْعَادِلَةِ الَّتِي أَسْتَغْرَقَتْ جَمِيعَ مَصَالِحِ الْعِبَادِ، وَتَارَةً مَا فِيهِ مِنَ التَّنْبِيهِ عَلَى الْآيَاتِ الْكُوْنِيَّةِ، وَالِدَّلَائِلِ الْعِلْمِيَّةِ، وَهَكَذَا، إِلَى بَرَاهِينٍ لَا تَنْقَطِعُ وَلَا تَنْتَاهِي، كُلُّهَا تَشْهَدُ أَنَّهُ كَلَامُ رَبِّ الْعَالَمِينَ.